

المستويات المعرفية في النقد الجزائري القديم - عبد الكريم النهشلي وابن رشيق أنموذجا -

أ. صدار رضوان

جامعة وهران

إذا أردنا أن نبحت في أي ظاهرة وتبيين ملاحظها في طرح رصين يقربها إلى عقول القراء، يجب أن يكون لديها شيء من الذبوع والإنتشار، فإن النقد الجزائري القديم كظاهرة أدبية كان موجودا منذ أن وجد الإبداع فهو غني بمادته متنوع بموضوعاته، وعقدت بشأنه المقارنات بينه وبين الدراسات الحديثة بغرض تبين قيمته وسعة أفقه، وحضوره تثبته النصوص الشعرية التي عرفت ازدهارا كبيرا ملتزمة بأساليب الشعر وفنونه وسنده المعهودة وأغراضه المتنوعة مثل: الغزل والهجاء والوصف والمدح " الذي كان يبلغ أحيانا درجة التصنع البارز والمبالغة المكشوفة" (1).

وإذا كان من مستلزمات النهضة الأدبية وجود مرجعية نقدية في بيئة ما، فقد وجد نقد بشكل من الأشكال في الجزائر قديما ممثلا في ناقدية عبد الكريم النهشلي وابن رشيق اللذان أنجبتهما المسيلة وضمتهما القيروان، هذان الناقدان استطاعا أن يبيننا صورة حيّة عن النقد الجزائري القديم. و ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن القيروان كانت مهد الحضارة، وحضارة العرب الثقافية، فأصبحت تستقطب أنظار الطلبة والمتعلمين للإعتراف من علومها فاجتمع فيها "من فضلاء العلماء، وصلحاء الأولياء والفقهاء والأطباء والكتاب ومفلكي الشعراء والمهندسين والمنجمين من الوهّاد والنجاد، إنضوا إليها من سائر البلاد، ما جعلها مدينة الإسلام بالغرب" (2). وانعكس هذا بالإيجاب على الحركة النقدية، فبرزت مجموعة من النقاد استطاعت بمجهودها أن تزاخم نقاد المشرق الذين ظلوا طوال عقود متتالية هم المسيطرون على أفكارنا وعقولنا، فإذا أردنا أن نعترف من الأدب، لا نجد غير ابن طباطبا والجاحظ والقاضي الجرجاني وقدامة بن جعفر وابن سلام الجمحي وابن المعتز...، حتى الغرب ظل ينظر إلى الثقافة العربية تلك الآتية من مصر ولبنان وسوريا...

إن الوقوف عند النقد الجزائري القديم، يكشف لنا أسرار ذلك النقد الذي كان صباه مبهما " فلم يستطع أهل المغرب أن ينبغوا في الشعر والنثر في بداية الأمر، لأنهم كانوا في طور التلمذة، وما إن توسط القرن الرابع الهجري، حتى أخذوا في المساهمة والإنتاج" (3)، فجاءت مرحلة النهضة الثقافية بكل أنواعها، فظهر علماء متخصصين جادت أقلامهم بالمقالات الأدبية، و" نشطت فيه الحركة العلمية نشاطا ملحوظا، وقد تميزت فيه مباحث العلوم القرآنية وغيرها بعد أن كانت محتلطة" (4)، فأضافوا وأثاروا نقاطا جديدة وقضايا نقدية جديدة فأثروا المكتبة العربية بمؤلفات نقدية نفيسة شكّلت رافدا هاما من روافد تراثنا النقدي.

1- حدّ الشعر: حُظي الشعر بأهمية كبيرة ومكانة عظيمة عند العرب عامة واللغويين والأدباء والنقاد خاصة، كيف لا وهو ديوان العرب وسجل مآثرهم وأيامهم وآمالهم وآلامهم، فكل الجهود التي قام بها الأقدمون والمحدثون لم تؤدّ إلى تعريفٍ دقيقٍ للشعر فلم يجد أحد حتى أرسطو تعريفا كافيا للشعر" (5).

يُعدّ الشعر الجنس الأول ممارسة لدى العرب، ويحتوي على أربع اصطلاحات، إعتاد النقاد على تسميتها بحدّ الشعر، وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وقد اختلفت وجهات نظرهم حول تحديد مدلولها أو مدلولاتها فمنهم من أكثر الحديث عن الألفاظ وفضّلها عن غيرها، ومنهم من فضّل المعاني ولكن قليلا منهم من درس في إسهاب ظاهري الوزن والقافية (6)، والظاهر أن هذه العناصر الأربعة بالإضافة إلى الخيال والتصوير، وإن اختلفت وجهات النظر حول مدلولها تبقى هي المحرك الأساسي للعملية الإبداعية.

لقد حاول عبد الكريم النهشلي أن يبذل أقصى جهده من أجل أن ينفرد برأي خاص أو إشارة يميّز بها حيث يقول: " لما رأت العرب المنثور يندُّ عليهم، و ينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبّروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا، ورأوه باقيا على مرّ الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعرا، والشعر عندهم الفطنة، ومعنى قولهم ليت شعري أي ليت فطنتي"⁽⁷⁾.

يريد عبد الكرم النهشلي، أن يبين أن الشعر مصدره النفس الإنسانية الشاغرة المشحونة بقدرة كبيرة على التعبير، وعليه فالشعر مردهُ إلى الجانب النفسي لا إلى الشكل، فجوهه شيء يختلج في الصدر فينطق به اللسان.

ثم نجد تلميذه المباشر ابن رشيّق وضّح مفهوم الفطنة حسب حسّ النقدي ونظرته الثاقبة حيث يقول: " وكان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النَّازحة وفسائها الأجماد وسمائها الأجواد، لتَهْزَأَ أنفسها إلى الكرم، فلما تمّ لهم وزنه سمّوه شعرا، لأنهم شعروا به أي فطنوا "⁽⁸⁾.

يؤكد ابن رشيّق في هذا النص أن الشعر مصدره شعور الإنسان، وهو مرتبط في نفس الوقت بالنظرة الفطنة إتجاه الأمور والأشياء.

من آراء الناقدين عبد الكريم النهشلي وابن رشيّق، نستشف أن صلة علم النفس بالأدب له إرصاصات وإشارات في النقد العربي القديم، وعليه فإن علم النفس الأدبي ليس حديث الميلاّد ووليد المناهج النقدية المعاصرة، وإنما يمتد إلى العصور الموعلة في القدم، وهو موجود كذلك عند قدماء اليونان والإغريق" فيمكن استشفاف تلك الصلة إن تلميحا أو تصريحاً عند أفلاطون في موقفه من الفن والأدب، وعند أرسطو في نظرية التطهير"⁽⁹⁾.

2- نشأة الشعر:

الشعر هو معنى الحياة ومرآة لها لتأثيره السحري في المشاعر، ولكن السؤال الذي حير القدماء والمحدثين هو: كيف نشأ الشعر؟ ومتى نطقت به العرب؟ ثم هل هو كلام عادي أم هو كلام خارق؟ هل هو معنى أو لفظ؟ هل هو صورة أو تعبير؟ ثم هل هو إرسال إيقاع أو هو إرسال للقول كما أثفق؟

هذه الأسئلة وغيرها حيرت النقاد منذ ابن سلام الجمحي، لأن الشعر بخصائصه الشعرية والفنية لا يمكن أن يكون قد نشأ غريزيا مع الإنسان، أو تكلم به فطريا.

ويُرسّم هذه الفكرة عبد الكريم النهشلي الذي يرى أن كلام العرب في بدايته كان نثرا، لكن من طبع الإنسان النسيان، وبما أن حياة العرب قديما كانت قائمة على الحروب والتقلبات السياسية رأوا أنه يجب ابتكار وسيلة تخلد أيامهم وحروبهم، فالنثر يُنسى مع مرور الزمن، فتدبّروا الأوزان والأعاريض، وأخرجوا الكلام وفقها، فوجدوه يُحفظ ويُرسخ في عقل الإنسان، حيث يقول: "أصل الكلام منثور، ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقها، ووقائعها، وتضمين مآثرها"⁽¹⁰⁾.

3- دواعي الشعر وبواعثه:

من المسائل التي اشترك فيها العلم الحديث (علم النفس، علم الجمال، ...) والنقد القديم، هي طبيعة الإبداع الشعري، فإذا حاولنا تتبع ظاهرة العملية الإبداعية في النقد العربي القديم، نجد أرسطو أول من ربطها بالطبيعة الإنسانية والمحاكاة، حيث يقول: "أما الطبع فلنا أن نشبهه بالتأليف واللحن، وذلك إما أن الأوزان مشاهبات للألحان فهو بين للذين هم مفطورون على ذلك منذ الإبتداء"⁽¹¹⁾.

أما نقاد القرن الثاني إلى الخامس للهجرة، فقد أرجعوا طبيعة العملية الإبداعية إلى قضية الطبع والصنعة، والسؤال المطروح: هل الخلق الشعري ناتج عن الموهبة والإلهام؟ أم ناتج عن العمل الإرادي والصناعة الفعلية؟ أما عبد الكريم النهشلي فقد جاء رأيه في هذه القضية باكورة نتائج من عاصروه من النقاد ومن سبقوه، فقد أورد تلميذه ابن رشيق نصاً في كتابه العمدة، يقول فيه: "حدثنا أصحابنا من أهل المهديّة بموضع كان يعرف بالكديّة هو أشرفها أرضاً، وأطيبها هواءً، فقال: جئت هذا الموضع مرة، فإذا عبد الكريم على سطح برج هنالك، وقد كشف الدنيا فقلت: أبا محمد؟ قال نعم، قلت ما تصنع هاهنا؟، قال: ألّقحُ خاطري، وأجلو ناظري، قلت: هل نتج لك شيء؟ قال: ما تُقرُّ به عيني وعينك إن شاء الله سبحانه وتعالى، وأنشد شعراً يدخل مسام القلوب" (12).

لقد آمن النهشلي بأن للشعر دواعي وبواعث تساعد على صقل الموهبة وشحذ القريحة، فالشاعر تمرُّ عليه أوقات ينقطع عن الإبداع، فالمبدع مجرد أحاسيس، وبالتالي هو يخضع لعوامل نفسية داخلية تؤثر عليه فالهجوم والتوتر يؤدي إلى تعكير الذهن وتعطيل الشعور، يقول ابن قتيبة: "وإذا عارضك الضجر، فأرح نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر الدريّة إلى أحسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين" (13).

ويطرح هنا ابن رشيق على لسان شيخه النهشلي إشكالية هامة في الإبداع الشعري، وهو أن الشعر ليس مجرد نظم وإنما إحساس وشعور، فخروج عبد الكريم للطبيعة هو لاستحضار واستثارة القريحة الشعرية والسانحة النفسية.

4- اللفظ والمعنى:

قضية اللفظ والمعنى من القضايا المهمة التي دارت حولها خلافات عديدة، وأثيرت حولها نقاشات كثيرة، وانقسم النقاد إلى ثلاث فئات، فئة تميل إلى جهة اللفظ وفئة أخرى تميل إلى جهة المعنى، وفئة ثالثة التزمت مبدأ الاعتدال بين الطرفين أي النظر إليهما مجتمعين.

أما عبد الكريم النهشلي، فهو يميل إلى جهة النقاد الذين يهتمون بالصياغة الفنية حيث يقول: "الكلام الجزل أغنى من المعاني اللطيفة، من المعاني اللطيفة عن الكلام الجزل" (14)، و يظهر ذلك في تلك الأغراض التي استعملها في شعره مثل القصيدة التي وصف فيها فيلاً فبرع في وصفه، حيث يقول:

وأضخَمَ هِنْدِي النَّجَارِ تُعْدُهُ *** ملوكُ بَنِي سَاسَانَ إِنْ رَأَبَهَا أَمْرُ
يَجِيءُ كَطُودِ جَائِلٍ فَوْقَ أَرْبَعٍ *** مُصْبِرَهُ، لُمْتُ كَمَا لُمْتُ الصَّخْرُ
لَهُ فَجَذَانِ كَالكَثِيبِينَ لُبْدًا *** وَصَدْرٌ كَمَا أَوْفَى مِنَ المَهْضَبَةِ الصَّخْرُ (15)

إذا تتبعنا أبيات القصيدة وجدنا قوة اللفظ المعبر عن المعنى، كما أنه أورد ألفاظاً تتناسب مع غرض الوصف، وهذا يبين رؤيته الواضحة والجلية لقضية اللفظ والمعنى.

أما ابن رشيق أراد أن يبين أن هناك تناقضا في القوالب، حيث تكون مسنودة في بداية الأمر إلى الألفاظ "معانيه قوالب لألفاظه" ثم نجدها مسنودة بعد ذلك إلى المعاني "ألفاظه قوالب لمعانيه" حيث يقول: "والقالب يكون وعاء كالذي تفرغ فيه الأواني ويعمل به اللبن والآجر، وقد يكون قدرا للوعاء الذي به اللوالبك وتصلح عليه الأخفاف ويكون مثالا كالذي تُحدى عليه النعال، وتُفصل عليه القلائس، فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظاً مرة ومعنى مرة" (16)

يريد ابن رشيق أن يبين أنه باعتماد العنصرين تتم العملية الإبداعية، فالألفاظ تتسلسل حسب الفكرة المراد إيصالها، والإحساس هو الذي يولد الألفاظ المعبرة عن الفكرة، فالألفاظ التي تعتمد على الفصاحة حسب ابن رشيق هي الملازمة للعملية الإبداعية.

ثم قام النهشلي بعرض مجموعة من أقوال النقاد في قضية اللفظ والمعنى إذ يقول: " قال بعض الحُذَّاق: المعنى مثال، واللفظ حذو، والحذو يتبع المثل، فيتغير بتغيره، ويثبت بثباته " (17)

الملاحظ على قول النهشلي أن فيه تذبذب، ففي القول الأول أثر اللفظ على المعنى، والقول الثاني إنتصر للمعنى على حساب اللفظ، ولم يجد بشير خلدون تفسيراً لهذا التذبذب في الرأي سوى قوله: " وهذه الفقرة تنص صراحة على أن الألفاظ خدم للمعاني، كما كان بعض النقاد يقولون وهو شيء مخالف لرأي النهشلي، ولكنه مع ذلك أثبتته لتراثه العلمية ... و المهم عندنا أن عبد الكريم كان من أنصار الألفاظ يتفق في ذلك مع الجاحظ (18).

5- السرقات الأدبية: إن موضوع السرقات الشعرية من المواضيع التي احتدم حولها جدلاً كبيراً منذ القديم، وإذا تأملنا إلى هذه الظاهرة في نقدنا العربي، فسنجدها قديمة قدم الشعر العربي، فهذا عبد الكريم النهشلي يقول: "قالوا السرقة في الشعر ما نقل معناه دون لفظه وأبعد في أحذه، على أن من الناس من يبعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرئ القيس وطرفة حين لم يختلفا إلا في القافية، فقال أحدهما: وتحمل وقال آخر: وتجلد ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى ويكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر وهم قليل، والسرقة أيضاً إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم " (19).

نستشف من هذا القول أن النهشلي، يتفق مع المشاركة في أن السرقة تكون في المعاني والبديع المخترع الذي يختص به شاعر بعينه " فالسرقة الفنية هي التي يخفي فيها الشاعر ديبه إلى المعنى بأن يكسوه حلّة جديدة " (20). ويقول ابن رشيق في الموضوع نفسه " وهذا باب متسع جدا، ولا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة " (21).

6- القديم والحديث:

معنى لفظة القديم في الأدب العربي هو ذلك الشعر الذي قيل في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، أما ما يعرف بالحديث فهو الشعر الذي بدأ مع قيام الدولة العباسية، وكانت هناك معركة كلامية بين أنصار القديم والحديث، فالذين يميلون إلى القديم حججهم في ذلك قوة المعاني وسهولة الألفاظ، وأما المتعصبون للحديث والنازيون عن القديم يحبون التجديد في الشكل والمحتوى.

وحتى عبد الكريم النهشلي أدلى بدلوه في هذه القضية كغيره من النقاد المشاركة، وكان موقفه موقف الواعي من هذه القضية والعبرة في رأيه ليس بتقدم الإنتاج أو حداثة وإنما بقيمته حيث يقول: "وقد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسُن في بلد ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند غيره، ونجد الشعراء الحذَّاق تقابل كل زمان بما استجد فيه، وكثر استعماله عند أهله غيره..... كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم، ونوادير حكاياتهم " (22).

يرى عبد الكريم النهشلي أنه ب(الأمكنة، البلاد، الأزمنة) يتحدد مقياس الإستحسان والإستهجان لدى الناس، وبالتالي عالج القضية بكل إنصاف "وتناولها من زاوية فنية بحتة من خلال التراث لا من خلال أصحابه، وهو موقف إن دلَّ على شيء، إنما يدل على أن النهشلي فهم العملية الشعرية فهماً عميقاً " (23). وعند قوله "يحسن في بلد ما لا يحسن في آخر ويُستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند غيره"، يريد أن يقول أن هناك اختلافاً بين قوم وآخر في اللغة، فما يفهم في بلده لا يفهم في آخر، حيث لا يوجد إتفاق تام حول استعمال ألفاظ اللغة الواحدة في أماكن متفرقة، فرمما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل في غيره"، وهذا الإنتباه من الناقد النهشلي إلى هذين الأثرين على إنتاج الشاعر، يجعله أسبق في

التنظير على كل من سانت بييف المتوفي سنة 1869م، وتلميذه تين المتوفي سنة 1893م... حيث أفاد هؤلاء جميعا من منهج العلوم الطبيعية، فزعموا بالقول أن الزمان والمكان والجنس قوانين لا ينجو منها أي مبدع، ونحن نعلم أن مشكلة الجنس والأصل إنما هي حق أريد بها باطل⁽²⁴⁾.

ثم تنبّه النهشلي إلى حقيقة مفادها... " كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم، ونوادير حكاياتهم. " يُبينُ النهشلي كيف أثرت الفارسية في الشعر العربي، ويظهر ذلك جلياً في استعمال أهل البصرة الألفاظ الفارسية في أشعارهم، وهذا بحكم الجوار بينهم، " ورأيه هذا يشير إلى تلاقح اللغات، والتأثير الذي تحدثه إحداهما في صاحبتها لسبب أو لآخر كما هو شائع في علم اللهجات⁽²⁵⁾. " ولقد كان ابن رشيق مسروراً بموقف أستاذه النهشلي، معتبراً إياه خطوة مميّزة في طريق النقد الأدبي، يقول: " وأنا أرجوا أن أكون باختيار هذا الفصل وثباته هاهنا داخلاً في جملة المميزين إن شاء الله تعالى، فليس من أتى بلفظ محصور تعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه، كالذي لفظه سائر في كل أرض معروف بكل مكان⁽²⁶⁾. "

لقد أثبتنا فيما سبق بما لا يدعُ مجالاً للشك، من خلال ما أوردناه من أمثلة ونماذج أن النقد الجزائري القديم له بصمة في تاريخ النقد العربي، فالجهود التي بذلها عبد الكريم النهشلي وتلميذه ابن رشيق تعتبر مرحلة من مراحل التأسيس، فقد استطاعا بمجهودهما أن يطلعا على آراء سابقيهما بوعي نقدي عميق، وحسّ أدبي رفيع ليعيدا صياغتها من جديد وفق مقاصدهما ومنظورهما النقدي.

الهوامش:

- 1 عبد الله شريط: تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 م، ط3، ص 139.
- 2 الميمني أبو البركات عبد العزيز: ابن رشيق (المعز بن باديس، عمران القيروان، حياة ابن رشيق)، المطبعة السلفية، القاهرة، 1343هـ، ص 25.
- 3 إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الشروق، عمان، 1993م، ط2، ص 446-447.
- 4 رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ط2، ص5.
- 5 عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي (عرض وتفسير ومقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة 1974م، ط3، ص 346.
- 6 بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981م، ص 133.
- 7 عبد الكريم النهشلي: الممتع في صنعه الشعر وعمله، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بمصر: د، ص 19.
- 8 ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرزان، دار المعرفة، بيروت، 1988م، ج1، ط1، ص 74.
- 9 عز الدين مختاري: المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد (نموذجاً) إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998م، ص 5.
- 10 عبد الكريم النهشلي: الممتع ص 11.
- 11 أرسطو: فن الشعر، تحقيق محمد عياد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م ص 39.

- 12 ابن رشيق: العمدة ج1، ص374-375
- 13— ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق كمال مصطفى، نشر مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1963م، ص34.
- 14 ابن رشيق: العمدة، ج1، ص256.
- 15 المصدر نفسه، ج2، ص1063.
- 16 المصدر نفسه، ج1، ص25.
- 17 المصدر نفسه، ج1، ص256-257.
- 18— بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص172.
- 19 ابن رشيق: العمدة، ج2، ص1038-1039.
- 20— أحمد يزن: النقد الأبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص101.
- 21— ينظر المصدر نفسه، ج2، ص2156.
- 22— ابن رشيق: العمدة، ج1، ص200-201.
- 23— بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص187.
- 24— محمد مرتاض: النقد العربي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره (دراسة وتطبيق) مكتبة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص76.
- 25— المصدر نفسه، ص77.
- 26— ابن رشيق، العمدة، ج1/ ص201.